فلسفة اللغة عند ابن جني

بن سعدية سعاد

طالبة في الدراسات العليا دكتوراه فلسفة ،قسم الفلسفة جامعة مستغانم

لقد نشطت الأبحاث اللغوية في السنوات الأخيرة غير أن هذا النشاط جعل يتخذ مسلكا قد يؤدي إلى غير ما ينبغي أن يؤدي إليه من تأصيل للمنهج العربي وتعميقه، مع أن العرب القدامى قد تناولوا اللغة بطريقة لا تبتعد كثيرا عما يقرره الدرس العلمي الحديث، وابن الجني[1] واحد من علمائنا الأجلاء وباحث لغوي أسس الفكر اللغوي وحدد معالمه وأخرج للناس من عصارة عقله الفذ ما أبهر العقول وأثلج الصدور، فكشف عن سحر العربية، وأجهر بأسرارها وبرهن على جمالها وقدم صورا رائعة عن حقائقها وفنونها.

سجل القرن الرابع هجري الارهاصات الأولى للتعامل مع المسألة اللغوية بشكل من الموضوعية والمنطقية، والغالب أن ابن جني هو أول من أعطى تعريفا للغة وكان ذلك في كتابه "الخصائص"، فلم يتطرق كل من ابن فارس والثعالبي في كتاباتهما عن "فقه اللغة" إلى تعريف اللغة، فتعريفه لها أثار دهشة الباحثين البعيدين عن تطور الحياة العلمية العربية، فهو يتطابق مع تعريفات المحدثين، وكذلك فإنه يشتمل على معظم جوانب التعريف التي عرضها" علم اللغة " في العصر الحديث، فكيف عبرت الفلسفة اللغوية العربية عن مرحلة ناضجة من مراحل الدراسات اللغوية؟ وكيف جسد ابن جني هذا النضج؟.

تعريف ابن جني للغة:

يقول ابو الفتح في كتابه "الخصائص" في باب القول على اللغة وما هي «أما حدها (فإنها أصوات) يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، هذا حدها...»[2] يتضمن هذا التعريف أربع جوانب هي:

1. (المادة الصوتية تتمثل في كون اللغة أصوات)،
2. (تعبير لغوي يبرز أن اللغة تعبير)
3. (ظاهرة اجتماعية باعتبار أنها تعبير يعبر به كل قوم عن أغراضهم)
4. (تمام البيان والدلالة باعتبار انها تعبر عن أغراضهم).

لقد نال تعريف ابن جني للغة شهرة واسعة في كتب اللغة الحديثة، وفيه يقول الدكتور فهمي حجازي: «وهذا التعريف دقيق ويتفق في جوهره مع عناصر تعريف اللغة عند الباحثين المعاصرين فهو يؤكد- من جانب- الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية، ويبين أيضا أن وظيفتها الاجتماعية هي التعبير ونقل الأفكار في اطار البيئة اللغوية، ويذكر كذلك أنها تؤدي وظيفتها في مجتمع بعينه، فلكل قوم لغتهم»[3] وذلك ان اعتبار اللغة أصوات لم يشهد إلا في العصر الحديث، فالباحثون أجمعوا على أن اللغة "أصوات"، والجدير بالذكر هو اخراج ابن جني "الكتابة" وقصر اللغة على الاصوات، وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل على أن علماء العربية لم يدرسوا اللغة العربية باعتبارها مكتوبة شأن علماء "فقه اللغة" وانما درسوها باعتبارها لغة "منطوقة" قائمة على "الأصوات" شأن أصحاب "علم اللغة".

لا تبتعد معالجة اللغويين المحدثين لهذا الجانب من تعريف اللغة عن معالجة ابن جني لها، باعتبارها "أصواتا"، لأن اللغة سواء كانت "نظاما من الرموز الصوتية" أو أنها "نظام من العلامات الصوتية"-كما وردت في دائرة المعارف البريطانية- أو جزءا من العلامات "السيميولوجية" -كما يراها دو سوسير- فإنها تدرس باعتبارها حروفا -مكتوبة-.

أما الجانب الثاني الذي تضمه تعريف ابن جني للغة، فهو الذي يشير إلى وظيفة اللغة، "يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، أي الوظيفة التعبيرية للغة. «تختلف اتجاهات اللغويين المحدثين بين كلمتين يطلقونهما على وظيفة اللغة، وهما "التوصيل"و"التعبير"، والكلمة الغالبة في كتب اللغويين هي أن "اللغة هي التوصيل داخل المجتمع"، بل إن الماركسيين يقصرون وظيفة اللغة على "الاتصال" على النحو الذي قرره لينين، من أن اللغة هي أهم وسيلة في الاتصال الإنساني»[4] بالاضافة إلى هذا الإتجاه ظهر اتجاه آخر يرفض قصر اللغة على وظيفة التعبير أو الاتصال فيقول أصحاب هذا الاتجاه: «هل اعتبار اللغة وسيلة من وسائل توصيل يجوز أن يعد تعريفا صادقا للغة؟ إن دراسة الأنواع المختلفة "للوظائف الكلامية" في لغة من اللغات الحية لا تؤيد أمثال هذه التعريفات ولا توحي بها»[5] ويقدم السعران أمثلة تبين أن الوظيفة الأساسية للغة ليست التوصيل أو التعبير من خلال طرحها للأمثلة التالية:

- القراءة المنفردة بصوت عال أو تدوين ملاحظات لا يريد الكاتب بها إلا نفسه، أو محادثة الإنسان لنفسه، ليس فيه أي نوع من التوصيل.
- إستعمال اللغة في السلوك الإجتماعي خاصة الجانب الديني، كالدعاء أو الصلاة.

- إستعمال اللغة كوسيلة لإخفاء أفكار المتكلم، كلغة السياسيين واللصوص والخارجين عن القانون.

ويضيف أيضا:«وهكذا نرى أن تلك النظرية (الكلاسيكية) في اللغة، تلك النظرية تقتصر وظيفتها على توصيل الفكر أو التعبير عنه، نظرية لا تمكننا من أن نحلل جميع أشكال (السلوك الكلامي)، وأصح منها وأدق أن ننظر إلى اللغة على أنها (وظيفة إجتماعية)، على أنها (طريقة من العمل)، فما من الشك أن مما يعيننا على فهم طبيعتها وجوهرها حق الفهم، أن ننظر إلى الدور الذي تقوم به في حياة الفرد، وفي حياة الجماعة التي يؤلف بين أفرادها الحديث باللغة المشتركة وفي حياة النوع الإنساني عامة».[6] لكن هذا الرفض ليس مقبول من طرف عدد كبير من اللغويين، خاصة "إدوارد سابير" الذي يرى أن حديث النفس هو صورة من صور التوصيل اللغوي، أو الاتصال مع النفس، بحيث يجتمع المتكلم والسامع في شخص واحد.

أما الجانب الثالث: فقد ذكر فيه ابن جني، أن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم "عن أغراضهم"، هذا التعريف يدفعنا إلى التساؤل استخدام لفظة قوم، وعدم استخدامه "لفرد" أو "إنسان"؟ فهل ابن جني متعمد في استخدامه لـ "قوم" ؟ لا بد أنه كان يقصد بالقوم "المجتمع" ذلك أن العرب كانوا يستعملون كلمة "قوم" للدلالة على "المجتمع"، كما نفهمه في العصر الحديث، وهذا القول يدل على فطنة العرب وعلى سعة إدراكهم، فقد أدركوا قانون من قانون حياة اللغة، فاللغة لا تكون إلا داخل المجتمع، إذا فقد اعتبر اللغة ظاهرة اجتماعية.

اللغويون المحدثون يتفقون على أن اللغة بنت المجتمع، وأنها لا تنشأ إلا داخل مجتمع معين، قد عبر فندريس عن هذا بقوله: «في أحضان المجتمع تكونت اللغة، وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم...فاللغة هي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفى، تنتج من الاحتكاك الاجتماعي، وصارت واحدة من أقوى القوى التي تربط الجماعات وقد دانت بنشؤها إلى وجود احتشاد اجتماعي»[7] وفي هذه النقطة بالذات يلتقي كل من ابن جني ودو سوسير، فكل منهما ينظر إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية، ويتضح ذلك عن ابن جني في قوله "كل قوم" وقول دوسوسير أن اللسان هو "نسق من الإشارات الصوتية التي يختص بها كل قوم من البشر في تواصلهم"، فهذا الأخير يعتبر اللغة، مؤسسة اجتماعية تشير إلى عقد واسع بين الناس، وأن لها استقلالها وقوانينها وتطورها.

يقول ابن جني في كتابه "الخصائص" قائلا: «وأعلم أن العرب تختلف أحوالها في تلقي الواحد منها للغة غيره، فمنهم من يخف ويسرع قبول ما يسمعه، ومنهم من يعتصم فيقين على لغته البتة، ومنهم إذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به، ووجدت في كلامه، ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قيل: يا نبي الله، فقال: لست بنبي الله ولكنني نبي الله، وذلك أم عليه الصلاة والسلام ، أنكر الهمز في اسمه فرده على قائله »[8] هذا يعني أن الإنسان لا يتكلم بمجرد امتلاكه لجهاز النطق، لكنه يكتسب اللغة من المجتمع، ومنه فإننا إن أخذنا على سبيل المثال طفلا جزائريا وضعناه منذ الولادة في الصين أو في فرنسا أو في انجلترا، دون أن يكون في وسطه الاجتماعي من يتحدث العربية، فإن هذا الطفل سيتكلم اللغة الصينية أو الفرنسية أو الانجليزية.

يقول الدكتور حجازي في تعريف ابن جني للغة، أن ابن جني أكد «أولا الطبيعة الصوتية للغة، كما ذكر وظيفتها الاجتماعية، في التعبير ونقل الفكر، وذكر أيضا أنها تستخدم في المجتمع، فلكل قوم لغتهم، ويقول الباحثون المحدثون بتعريفات مختلفة للغة، وتؤكد كل هذه التعريفات الحديثة الطبيعة الصوتية للغة، والوظيفة الاجتماعية للغة، وتنوع البنية اللغوية من مجتمع إنساني لآخر»[9] فابن جني نبه على المعيار الاجتماعي في اللغة، باعتبارها تخص كل قوم، ومن هنا جاء ما يسمى حديثا "علم اللغة الاجتماعي"، كما عبر عن الطبيعة الصوتية للغة، وأفرد أول كتاب لدراسة الصوت اللغوي في العربية هو "سر الصناعة"، حدد فيه مخارج الحروف وصفاتها، والتفت إلى جهاز النطق الذي شبهه بمزمار له ثقوب، ولكل ثقب صوته الخاص. كما أشار إلى إلى غاية اللغة وهي التعبير عن الأغراض، ولا شك أن هذا التعريف شديد الاختصار، قد كان سباقا وذكيا وعقلانيا في جمعه بين كل جوانب اللغة كما جاء في العلم الحديث.

الجانب الرابع يكمن في أن اللغة "أصوات يعبر بها كل قوم "فإنها إذا "نظام من الرموز الصوتية" للتوصيل أو التعبير داخل مجتمع بعينه، إلى هنا نكون قد توصلنا إلى الجوانب الثلاثة من تعريف ابن جني للغة، ومنه يمكننا التوصل إلى الجانب الرابع عند التساؤل، عن ماذا تعبر اللغة؟.

يصوغ علم اللغة الإجابة عن هذا السؤال بالعلاقة بين الفكر واللغة، ويبرز ذلك في قول ابن جني تعبير عن "أغراض"، أي أن اللغة ليست مجرد أصوات عشوائية، أو تعبير عن أي شيء، بل هي تعبير عن أغراض، والتي يمكننا فهمها بأنها "التفكير"، التي قد يقتصر معناها على "الصورة العقلية" أو على " العمليات الذهنية".

إن موضوع العلاقة بين الفكر واللغة، شغل الدارسين والباحثين منذ القدم، كما أنه مجال يتخذ مكانته في في "علم اللغة الحديث" وأغلب العلماء يرون أن هناك صلة بين اللغة والفكر، وأن اللغة وعاء الفكر، أو لا وجود للفكر دون اللغة، وكذلك فإن العرب

اشتقوا اسم المنطق –والذي هو علم يدرس قوانين الفكر– من "النطق" إشارة إلى مابين اللفظ والفكر من صلات. فالأفكار لها وجود غير مستقل عن اللغة، كما أن وظيفتها غير مستقلة عن اللغة أيضا، فاللغة ليست رصدا للمفردات، ولا جمعا للألفاظ دون وعي، فاللغة قضايا مفيدة لها دلالة معينة.

في العلاقة بين اللغة والفكر، لا يمكننا الحكم بأسبقية أحدهما عن الآخر، فهما يخضعان لتأثير متبادل، وفي الأخير يمكننا أن نقول بأن ابن جني أكثر توفيقا في تحديده لوظيفة اللغة على أنها تعبير عن أغراض، لأن هذه الكلمة أوسع وأشمل من كلمة الفكر.

نشأة اللغة عنده:

لقد لقيت قضية نشأة اللغة حضورا مكثفا في مؤلفات الأقدمين، ربما لأن موضوع اللغة يشكل موضوع الإنسان، وقد انقسم الباحثون في نشأة اللغة –في نظر البعض– إلى قسمين: «قسم قائل بالضرورة والطبيعة ويتزعمهم ابن فارس في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة"، أما القسم الثاني فهم من ذهبوا إلى أن أصل اللغة هو تواضع واتفاق، وهنا تبرز جهود عالمنا الجليل ابن جني الذي أخذ منحا جديدا في هذه الدراسة»[10] فقد خصص ابن جني في كتابه "الخصائص" فصلا كاملا أورد فيه الأراء التي ظهرت حتى عصره في نشأة اللغة، في باب سماه "القول في أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح" وقال فيه: « هذا موضع محوج إلى فضل تأمل، غير أن أكثر أهل النظر أجمعوا على أن أصل اللغة أنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف»[11] ثم يستأنف كلامه بذكر رأي ابن فارس في نشأة اللغة: «إلا أن أبا علي رحمه الله، قال لي يوما هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه وتعالى: "وعلم آدم الأسماء كلها" وهذا لا يتناول موضع خلاف، وذلك أنه يجوز أن يكون تأويله :أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله

لقد عرض ابن موقف اللغوين القدامى من نشأة اللغة وقدم أدلة عن كل مذهب وسوف نعرضها كما عمد هو على عرضها

1/ اللغة توقيف من الله :

فقال عن أصحاب مذهب التوقيف مضيفا لهم تفسيرا آخر هو: «إن الله سبحانه وتعالى علم آدم اسماء جميع المخلوقات، بجميع اللغات: العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية، وغير ذلك من اللغات، فكان آدم و ولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه، واضمحل عنه ما سواها، لبعد عهدهم بها »[12]

وقدم ابن الجني ردا على من ينكر أن تكون المواضعة من الله، إذ قال :« قالوا : والقديم سبحانه لا يجوز أن يصف بأن يواضع أحدا من عباده على شيء ، إذ ثبت أن المواضعة لابد معها من ايماء وإشارة بالجارحة نحو المومأ إليه ، والمشار نحوه، والقديم سبحانه لاجارحة له، فيصبح الإيماء والإشارة بها منه، فبطل عندهم أن تصح المواضعة على اللغة منه، تقدست أسماؤه»[13] كان هذا رأي الذين رفضو القول بالمواضعة لأن الله أعلى من أن يحاور أحدا من بشره ويتفق معه، ولأن المواضعة تحتاج لاداة أو ايماء أو حركة والله لاجارحة له وهنا يسقط القول بالمواضعة، ثم رد عليهم إبن جني بقوله : «إلا أنني سألت يوما بعض أهله، فقلت: ما تنكر أن تصح المواضعة من الله تعالى؟ وإن لم يكن ذا جارحة بأنه يحدث في جسم من الأجسام خشبة أو غيرها، إقبالا على شخص من الأشخاص وتحريكا لها نحوه، ويسمع في نفس تحريك الخشبة نحو الشخص صوتا يضعه اسما له، ويعيد حركة تلك الخشبة نحو ذلك الشخص على دفعات– مع أنه عز اسمه– قادر على أن يقنع في تعريفه ذلك بالمرة الواحدة، فتقوم في هذا الإيماء، وهذه الإشارة، مقام جارحة ابن آدم في الإشارة بها في المواضعة، وكما أن الإنسان أيضا قد يجوز إذا أراد المواضعة أن يشير بخشبة نحو المراد التواضع عليه، فيقيمها في ذلك مقام يده لو أراد الإيماء بها نحوه ، فلم يجب عن هذا بأكثر من الإعتراف بوجوبه» [14] هنا يحاور ابن جني الذين يرفضون أن تكون اللغة وحيا من الله ويناقشهم في دليلهم، ويقول بما ان الله قادر على كل شيء فإنه قادر على نفخ شيء من قوته في خشب مثلا ليحل محل جارحة اللسان.

2/ اللغة تواضع واصطلاح:

ابن جني دعا إلى أن أصل اللغة تواضع واصطلاح، وقد شذ عن رأي غالب علماء اللغة في عصره، ففسر الآية: "وعلم آدم الأسماء كلها"، على خلاف أصحاب مذهب التوقيف، على أن الله أعطى آدم القدرة على اصطلاح أسماء الأشياء أي: «أن الإنسان قد ركبت فيه استعدادات فطرية، وقواعد ذهنية بها يستطيع أن يسمي الأشياء الجديدة»[15] وفي هذا الصدد يقول ابن جني: «وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيصيغوا لكل واحدة منها سمة ولفظا، إذا ذكر عرف به ما سماه، ليمتاز من غيره، وليغني بذكره عن احضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف احضاره»،[16] فبهذه القدرة التي وهبها الله للبشر تمت المواضعة الأولى، على يد جماعة من ذوي العلم الذين يتمتعون بعقليات عالية، اجتمعوا ليصطلحوا أو يتواضعوا على أسماء للأشياء، فتبنى جماعة هذا التواضع ليكون لغة للتفاهم فيما بينهم وليعبروا بها عن أغراضهم وتسهيل التواصل فيما بينهم.

ابن جني هنا استدل بالآية الكريمة ليبرهن على سقوط الاستدلال بها، حتى أن هناك كثيرا من العلماء من كاد يجزم برفض ابن جني للقول بأن اللغة وحي وذلك بحكم اعتزاله، بأن القرآن مخلوق، فانه ليس من المعقول ان يقولوا بأن اللغة وحي واهام.

لقي القول بأن أصل اللغة مواضعة واصطلاح نقدا كان مفاده أن التواضع في حد ذاته، يحتاج إلى لغة للتفاهم، فيكيف كان المتواضعون يتفاهمون حال وضع الألفاظ لمعانيها؟ اذن «إن التواضع نفسه يتوقف على لغة صوتية يتفاهم بها الواضعون، فما يجعله أصحاب النظرية منشأ للغة، يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل»،[17] هذا لأنه حتى تتواضع جماعة من الحكماء على أسماء للاشياء يجب أن تكون هناك لغة من أجل التفاهم والإتفاق، والقول بأن يحضروا الشيء، ثم يصطلحوا له إسما، حتى يكون دالا عليه، يطرح تساؤلا هو، كيف تم التواضع على الافعال والحروف التي ليس لها مدلولات يشار إليها؟

3/ اللغة محاكاة:

مذهب المحاكاة هو المذهب الذي يرى ان اللغة نشأت تقليدا لأصوات الطبيعة، أو أن منشأها الحوادث الكونية التي تحيط بالإنسان فيقول ابن جني في هذا الصدد: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات: كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الرعد وحنين البحر، وخرير الماء، وشحيح الحمار، ونعيق البغال، وصهيق الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات من ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل»[18] ابدى إبن جني إعجابا بالغا بهذه النظرية، فتحدث عنها في مواضع متعددة من كتابه، في باب سماه "باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، شرح في هذا الباب عدة ظواهر لغوية، تصب كلها في معنى أن اللفظة صورة من أصوات الطبيعة، فالإنسان الأول حاكى أصوات الاشياء والحيوان، حتى يدل بالصوت على مصدره الأول، من أجل الدلالة عنه، ثم وبفضل القدرات التي منحها الله إياها تمكن: « من التلفظ بأصوات مركبات ذات مقاطع، وكانت لغته الأولى محدودة الألفاظ قليلة التنوع قريبة الشبه بالأصوات الطبيعة، التي أخذت عنها ولا تدل دلالة واضحة على المعنى المطلوب منها، ولذلك كان يستخدم الإشارة بجميع أنواعها لتحديد مراده»[19] لكن حياة الانسان لا تستقر على درجة واحدة في سلم الرقي، بل إنها قطعت أشواطا عديدة وتعالت مراتبها فيه، فتطورت الحياة الإجتماعية وتطورت معها لغته فاستغنى شيئا فشيئا عن الإشارات المساعدة، وبازدياد هذا التطور والتقدم وجدت الألفاظ الدالة على الأشياء المعنوية، حتى وصلت إلى الغاية التي ينشدها الباحث والمتكلم، فهذه النظرية مقبولة من الوجهة العلمية والإجتماعية «فهي تتفق مع سنة النشوء والإرتقاء، التي تخضع لها الكائنات وظواهر الطبيعة، واللغة كائن اجتماعي، ولم يقم أي دليل يقيني على خطئها، وتتفق وحال الطفل والأمم البدائية»[20] فالتقليد هنا أساس اللغة، فالطفل في المرحلة الأولى من حياته يلجأ إلى محاكاة أصوات الأشياء، قصد التعبير عنها، أو عن مصدرها، ويستعين الطفل في هذه المرحلة بالإشارات المساعدة، ثم يستغني عنها شيئا فشيئا، إلى أن يكتسب اللغة من أبويه، فما الإنسان إلا طفل تاريخي، على حد تعبير البعض وكذلك هو الأمر بالنسبة للغات الأمم البدائية تكثر فيها المفردات التي تشبه أصواته أصوات ما تدل عليه.

لاقت هذه النظرية رفضا من قبل اللغويين المحدثين، أمثال ادوارد سابير الذي قال: «اعتبار اللغة نشاطا غريزيا، وأن اللغات كلمات مقلدة في الأصوات الطبيعية، وهم باطل، وان الكلمات التي تبدوا أنها تقليد لأصوات طبيعية لم ينشئها الانسان بطريقة آلية، أنها –كأي كلمات في اللغة – من ابتكار العقل الإنساني»[21] هذا باعتبار أن العقل الإنساني أرقى من أن يقلد أصوات أدنى منه وأحط، وهذا ايضا كان رأي رينان الفرنسي، وماكس مولر، وهناك من يرى ان تلك النظرية لا تعطي تفسيرا لأصل اللغة، لأن لغات بعض الشعوب البدائية، تكاد تخلو من هذه الكلمات المحاكية للأصوات، ولو صحت هذه النظرية لما تعددت اللغات ولتماثلت أو تشابهت على الأقل، لأن أصوات الطبيعة واحدة.

لقد صور ابن جني حقيقة كل رأي، في نشأة اللغة، وحدد أسسه، وقدم عن كل رأي أدلة، وناظرهم مناظرة علمية، يهدف من ورائها، تقصي الحقيقة بعيدا عن الاهواء، فهو لايسير وفق الرأي الالاهي ، على الرغم من إتصاله بالعواطف الدينية، لكنه يقول: أنه من الممكن أن يسلم بهذا الرأي ، إذا ما استحال الحال، وثبت أن تفسير الآية هو أن الله علو آدم الاسماء، ثم كذلك يناقش أراء الاصطلاحيين، ويرد عليهم في تصورهم عدم إمكان التوفيق، لأن الإشارة متعذرة من الله، فقدم أدلة عقلية تبطل رايهم، ثم يناقش النظرية القائلة بأن اللغة صادرة عن محاكاة الأصوات، فرأى انه لا مانع من الاخذ بهذا الرأي، وفي آخر الباب ذكر نصا يدل تحيره في القول بالإصطلاح أو التوقيف، فقال: «واعلم فيما بعد، أنني على تقادم الوقت، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي، مختلفة جهات التغول إلى فكري،... فأقف بين تلك الخليتين حسيرا، وأكثرهما فأنفكيء مكثورا، وإن حظر خاطر فيما بعد، يعلق الكف بإحدى الجهتين، ويكفهما عن صاحبتها، قلنا به، وبالله التوفيق»[22] فهو وبحكم انصافه وروح العالم

التجريبي، يقف ابن جنى حائر الفكر ذاهل العقل، لأن نتائجه ظنية غير يقينية، فهو لم يقطع في هذا الأمر برأي، انما عرضه على بساط البحث بكل أمانة وروح علمية.

علاقة اللفظ بالمعنى:

على الرغم من اختلاف العلماء حول أصل اللغة إلهام أم اصطلاح؟ فإنهم كانوا يرون أن الأصوات اللغوية تعوض الإشارات والحركات الحسية، فانسان ما قبل اللغة، كان يعتمد الاشارات والايماءات لإبلاغ غرضه ومقصوده، ثم استعاض عنها بالأصوات اللغوية، وهذه الإستعاضة لابد أن تكون على أساس يحتفظ فيه البدل والمبدل عنه، بخصائص مشتركة تبرر عمليه الاستعاضة، وفي هذا المقام تصبح وظيفة الالفاظ هي الإشارة إلى الأشياء، في حالة غياب الحواس (أدوات الإشارة)، وذلك من أجل التعريف بها، وعليه فإن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة إشارية بحته، ولكن على الرغم من ذلك فإن وظيفة الدوال تبقى على إختلافها هي التعبير عن المعاني، وهذا ما يدفعنا إلى تحديد نظرة السلف، للعلاقة الرابطة بين اللفظ والمعنى التي تبرر حقيقة الوضع اللغوي كما تناولته الكتابة التراثية، هذا الوضع الذي عبر عنه الأستاذ الجابري بأنه هو الإشكالية الرئيسية في النظام المعرفي البياني العربي الذي اسسته هي: مشكلة الزوج: اللفظ/ المعنى، وعبر عنها بالتساؤل: كيف تم ضبط العلاقة بين اللفظ والمعنى في الفكر القديم؟

الإجابة عن هذا السؤال اتخذت احدى منحنيين فقد «اختلف العلماء منذ القديم حول دلالة اللفظ على المعنى بذاته، أو بوضع الله أو الناس له: وكان لمفكري اليونان والرومان، ومفكري العرب أيضا وقفة عند هذه المشكلة، وهم فريقان: فريق يرى أن الصلة بين الألفاظ والدلالة لا تعدو أن تكون صلة اصطلاحية عرفية تواضع عليها الناس، وفريق يرى أن بين الألفاظ ومدلولاتها ربطا وثيقا، ويجعلها سببا طبيعيا للفهم والادراك، فلا تؤدي الدلالة إلا به، ومن أجل هذا كانوا يطلقون على الصلة بين اللفظ ومدلوله(الصلة الطبيعية أو الذاتية) ونلحظ هذا الاتجاه من التفكير فيما يرويه أفلاطون في محاوراته عن أستاذه سقراط الذي كان فيما يبدو يميل إلى هذا الراي»[23] وكان ابن جني ايضا واحدا من المفكرين الذين تنبهوا لأهمية الدلالة في ميدان الحقوق والمعاملات التجارية والاقتصادية والدين، وكذا لأهميته في كشف أخطاء فهم الآيات القرآنية الناتج عن عدم توافق الألفاظ ودلالاتها، فتخصص في كتابه "الخصائص"، فصلين لتحديد العلاقة بين الالفاظ ودلالاتها: وهما: "باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" و"باب في أمساس أشباه الالفاظ اشباه المعاني"

الإشتقاق الأكبر: هو اكتشاف عجيب توصل فيه ابن جني إلى نتائج لها أهميتها العلمية في القديم والحديث ، وتلخص هذه النتائج في ثلاث نقاط أساسية هي : دوران المادة حول معنى واحدا، الصلات بين الألفاظ ومدلولاتها، وإلقاء الضوء على ثنائية اللغة منذ نشأتها.

يهمنا من هذه النقاط التي توصل إليها عالمنا الجليل النقطة الثانية، أي الصلات بين الألفاظ ومدلولاتها، أي ما هو متصل بالدراسة المعجمية، ما عرض له ابن جني تحت ما أسماه " الإشتقاق الاكبر"، فقد كان ابو الفتح يعتقد أن اللغة – بأصواتها التي تمثلها الأبجدية – انما تقدم إحتمالات لا نهاية لها من الألفاظ التي ترمز إلى معان، ومن ثم أكد أن تقلبات اللفظ الواحد تؤدي إلى معان متقاربة، اعتمادا على ما قرره من وجود علاقة بين اللفظ ومدلوله، وهذه الطريقة في محاولة الوصول إلى الإحتمالات اللغوية من لفظة واحدة هي الطريقة التي إعتمد عليها الخليل في العين، وفي هذا يقول أبو الفتح: «باب في الإشتقاق الاكبر: هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا، غير ان أبا على رحمه الله، كان يستعين به، ويخلد إليه، مع أعواز الإشتقاق الأصغر، لكنه مع هذا لم يسمه»[24] ومن هذا الكلام نفهم ان الإشتقاق الأكبر ليس من ابتداع ابن جني، وانما له فقط فضل التسمية، فالخليل هو أول من التفت إلى هذا العلم، وبنى تأليف " العين " عليه.

أعجب ابن جني بالعلاقة أو الصلة بين الألفاظ ومعانيها، المربوطة ربطا وثيقا، يكاد يشبه الصلة الطبيعية أو الذاتية: «فتتلخص نتائج بحوثه في هذا الموضوع في نقطتين: الأولى تتعلق بأصوات الحروف المفردة والمركبة، والصلة بينها وبين المعاني الموضوعة لها، والثانية تتعلق ببعض الصيغ التي وضعت فيها الصلة السابقة»[25] وفي هذا الصدد يقول ابن جني: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج ملتئب، عند عارفيه مأموم، وذلك أن الطاء أخفض للصوت وأرسع قطعا من الدال، فيجعلون الطاء المناجرة لقطع العرض لقربه وسرعته، والدال المماطلة لما طال من الأثر وهو قطعه طوالا»[26] وهذا معناه أن للحرف قيمة تعبيرية فكل حرف يستقل بمنحى خاص، مادام يستقل بإحداث صوت معين، كذلك هذه القيمة تصدق على الصوت المركب، فالاشتقاق الأكبر يجمع بين الكلمات التي تقاربت حروفها لتقارب معنيها ، وهذا دليل «على وجود العلاقة الذاتية الطبيعية بين اللفذ ومدلولها أو بعبارة أخرى أدق، بين صوت الحرف البسيط وقيمته البيانية»[27] ففي باب "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" تجد الكثير

من الألفاظ التي عقد فيها الشبه بين حروفها ومعانيها، مع ثبوت الصلة بين الحرف ومعناه مهما تغير موقع الحرف.

أما بالنسبة للكلمات المركبة فهناك نوعين من الكلمات:

-أسماء الأصوات الطبيعية وفيها المناسبة واضحة بين الحروف ومعانيها، مثل تسمية الأشياء باصواتها، كالبط لصوته...

-أي أنهم يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث العبر عنها بعد ترتيبها، مثل قوله بحث، فالباء لغلظتها تشبه بصوتها خفقة الكف على الارض، والحاء لسحلها تشبه مخالب الأسد إذا غارت غي الارض والثاء للنفث والبث في التراب.

أما النطقة الثانية التي يثبت بها ارتباط الصيغ اللغوية بالمعاني الموضوعة لها وهي:

1-ما جاء من مضاعف الثلاثي أو الرباعي، وفيه حكاية للأصوات مثال ذلك ما وجدوا في صوت الجندب من استطالة ومد فقالوا صرصر، ووجد ابن جني أشياء كثيرة على سمة المثال مثل المصادر الرباعية المضاغفة التي تأتي للتكرير، نحو زعزعة، وقلقلة، صلصلة، قعقعة، صعصعة، جرجرة، وقرقرة.

2- ماكرر فيه العين أو اللازم: والأصل في هذا التكرير إنما يكون للعين، فتكرير العين هو تكرير للفعل، مثل: كسر، قطع، فقوة اللفظ دليل على قوة المعنى، وتكرير العين بالذات، نظرا لأن العين أقوى من الفاء واللام، كذلك تقطيع الفعل مثل: صرصر، حقحق، وهذا دليل على تقطيع الفعل، كذلك قوة المعنى.

3- المصادر التي تتابعت حركاتها، كالفعلان والفعلى، فالمصادر التي جاءت على وزن فعلان تدل على الاضطراب والحركة، مثل الغليان، وغثيان، والتي على زون فعلى، في المصادر والصفات إنما تدل على السرعة، وزن استفعل على أكثر الأمر المطلب نحو استسقى، واستطعم، استمتع...

ابن جني يعد رائد اللغويين القدامي الذين لاحظوا هذه الظاهرة وقرروها، فملاحظته لهذه الظاهرة أوحت إلى بعض الباحثين في العصر الحديث بنظرية القيمة التعبيرية للحرف في الألفاظ العربية.

مفهوم الملائمة عند ابن جني:

أدرك ابن جني أن تحديد المعنى المقصود ، لايتم إلا بمعرفة الظروف التي تحيط بالكلام، فعرض هذا الجانب في أكثر من موضع، منها قرر فيه أن المعاني قد لايوصل إلا بالظروف التي أحاطت بها، ومن ثم لاينبغي على اللغوي أن يكتفي "بالسماع" بل ينبغي إليه "الحضور والمشاهدة" أي يحيط بظروف الكلام، أو "سياق الحال" كما يطلق عليه المحدثون.

كذلك ذكر ابن جني في موضع آخر فيقول: «وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فيقول: كان والله رجلا، فنريد في قوة اللفظ بـ "الله" هذه الكلمة، ونتمكن من تمطيط اللام وإطالة الصوت وعليها أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك، وكذلك نقول: سألناه فوجدناه إنسانا، وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتسعى بذلك عن وصفه: إنسانا سمحا، أو جوادا، أو نحو ذلك، وكذلك إن ذممته وصفته بالذيق فقلت: وجدناه انسانا، وتزوي وجهك وتقطبه، فيغنى بذلك عن قولك: إنسانا لئيما أو مبخلا أو نحو ذلك »[28] وهذا ما يؤكد إدراكه لضرورة معرفة سياق الحال، حين ذكر العوامل التي تؤثر في المعنى كالنبرة والتنغيم، والاستعانة بإشارة الوجه أو اليدين أو غير ذلك.

وفي موضع آخر يقول: « ومن ذلك ما أقيم من أحوال المشاهدة، مقام الأفعال الناصية، من ذلك أن ترى رجلا قد سدد سهما نحو الغرض ثم رأسه فتسمع صوتا فتقول: القرطاس والله قذ اصاب في حكم الملفوظ به البته، وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال عليه، نابت مناب اللفظ به، وكذلك قولهم للرجل مهو بسيف في يده، زيدا، فصارت شهادة الحال بالفعل بدلا من اللفظ به فالحال المشاهدة، إرسال السهم والهوي بالسهم حدثان غير كلاميين، ناب مناب الحدث الكلامي لأنهما جزء من سياق الحال، فاستغنى بهما عن الفعل الناصب، إذا كانت لهما نفس الدلالة وبالتالي نفس العمل »[29] هذا معناه أن ابن جني رأى أن حال المشاهدة أي الحدث غير الكلامي، يمكن أن ينوب عن اللفظ، ويكون له تأثير في بيان المعاني النحوية، التي تترتب عنها المعاني الدلالية.

هنلك من يرى ان ابن جني ومن تابعه مبالغون في هذ الرأي باعتبار أن المناسبة لا تتضح في كل الفاظ اللغة، فمثلا الدكتور نجا يرى أن هناك امثلة كفيلة بتحقيق المناسبة بين اللفظ والمعنى، إلا أن هذه الألفاظ موضوعة للأشياء المحسوسة، وهناك أشياء لها أسماء لا صلة لهم به، فهناك ألفاظ كثيرة موضوعة للمعنويات كالحلم، والعقل، وبعض أسماء الحيوانات، كالقط، والثعلب، لا تظهر فيها مناسبة بين اللفظ والمعنى.

والدكتور محمد مبارك الذي يقول: « أن الامثلة التي قدمها الباحثون في هذا الباب لا تكتفي لاستنتاج قانون عام يشمل ألفاظ العربية كلها»[30] مبررا ذلك بوجود:

- بعض الألفاظ قد فقدت الصلة بين أصوات حروفها ومعانيها نتيجة لتطور بعض الأصوات بالقلب والابدال وهنا تفقد العلاقة بين الصوت وما يدل عليه.

– بعض الألفاظ وضعت لمعان جديدة في العصور المختلفة بعد نشأة الانسان ولا شك أن الانسان ارتقى من طور البدائية أخذ يضع ألفاظ للمعاني دون أن توجد صلة بينها وبين اصواتها.

فعلينا اذا أردنا معرفة القيمة التعبيرية للحرف: « أن نعرف أن لكل لفظ نشأة وميلادا وأن لكل لفظ اشتقاقا وتوليدا إذ يجب أن نفرق بين الدلالة الذاتية والدلالة المكتسبة وأن ندرك أن الدلالة الذاتية لا تلتمس إلا في اللفظ عند نشأته الاولى وأن هذه المناسبة فيما حدده الاستعمال من مدلولات ذاك اللفظ انما تحمل حملا على المعنى الاصلي الأقدم ...فالدلالة ذاتية في كل ما يتصل بالطبيعة»[31]

ومنه فالصلة وثيقة بين اللفظ ومدلوله —كما قال ابن جني لكن هذا الرأي لا يمكن تعميمه على كل الألفاظ.

آخر ما يمكن قوله هو أن الموضوعية العلمية تقتضي درس القديم (الفلسفة اللغوية العربية) درسا صحيحا، بتحري الدقة والامانة، ذلك أن للدراسات اللغوية العربية، فلسفة عربية محضة، وليدة منهج عربي بكل خطواته، فدراسة القديم تمكننا من رؤية المناهج الحديثة، فما نؤكد عليه هو أن المنهج اللغوي القديم هو الذي حفظ لنا اللغة العربية لقرون طويلة، فاللغة العربية جوهر حياة امتنا نظرا لارتباطها بالقرآن الكريم، لذلك يجب النظر إلى الدرس اللغوي العربي نظرة خاصة، وتأصيل هذه الدراسات.

المراجع:

1- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، مصر، ط2، 1988.
2- الراجحي عبده، فقه اللغة في الكتب العربية، الاسكندرية، مصر، 1988.
3- الزواوي بغورة، الفلسفة واللغة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005.
4- عثمان ابن جني، الخصائص، ج1، دار الكتب المصرية، مصر، ط2، أوت 1955
5- عثمان ابن جني، الخصائص، ج2، دار الكتب المصرية، مصر، ط2، أوت 1955
6- عبد الغفار محمد هلال، عبقري اللغويين، أبو الفتح عثمان ابن جني، المجلد 1، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2006.
7- عبد الغفار محمد هلال، عبقري اللغويين، أبو الفتح عثمان ابن جني، المجلد 2، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2006.
8- مجاهد عبد الكريم، علم اللسان العربي، فقه اللغة العربية، دار أسامة للتوزيع والنشر، ط1، الاردن، 2005.
9- صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة في الكتب العربية، الاسكندرية، مصر، 1988.

الهوامش:

1. هو أبو الفتح عثمان ابن الجني الموصلي النحوي واللغوي، كانت ولادته بالموصل، وذكرت المصادر أنه ولد قبل سنة 330هـ، واذا كانت المصادر التاريخية تجمع على أنه توفي سنة 392هـ، وكان ذلك في السبعين من عمره، فإن ولادته تكون في سنة 322هـ ومما عرف عنه أنه كان ممتعا لإحدى عينه، وهي كناية عن عوره.
- أهم مؤلفاته "الخصائص" الذي تمت طباعته أول مرة سنة 1913، لكنه لم يطبع كاملا، وطبع كاملا على يد محمد علي النجار عام 1955، وله أكثر من 50 مؤلفا مثلت ثورة ثقافية أثرى بها خزانة العرب اللغوية والفكرية.
2. عثمان ابن جني، الخصائص،ج1أ دار الكتب المصرية، مصر، ط2، أوت 1955، ص33.
3. مجاهد عبد الكريم، علم اللسان العربي–فقه اللغة العربية– دار أسامة للتوزيع والنشر، ط1، الاردن، 2005، ص ص 10-11
4. الراجحي عبده، فقه اللغة في الكتب العربية، الاسكندرية، مصر، 1998، ص69 [1]
5. المرجع نفسه، ص70
6. المرجع نفسه، ص70.
7. المرجع السابق، ص 72.
8. عثمان ابن جني، الخصائص، ج2، دار الكتب المصرية، مصر، ط2، أوت 1950، ص 383.
9. مجاهد عبد الكريم، مرجع سابق، ص 11.
10. الزواوي بغورة، الفلسفة واللغة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005، ص35.
11. عثمان ابن جني، الخصائص، ج1، ص 40.
12. عثمان ابن جني ، الخصائص، ج1، ص 45
13. المصدر نفسه، ص 45
14. المصدر نفسه ، ص45
15. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، مصر، ط2، 1988، ص 136
16. عثمان ابن جني، الخصائص، ج1، ص45
17. عبد الغفار محمد هلال، عبقري اللغويين، أبو الفتح عثمان ابن جني، المجلد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2006، ص299
18. عثمان ابن جني، الخصائص، ج 1، صص46-47
19. عبد الغفار محمد هلال، عبقري اللغويين، المجلد1، ص 303
20. المرجع نفسه، ص305 1
21. عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، مرجع سابق، ص92
22. عثمان ابن جني، الخصائص، ج1 ، ص41
23. عبد الغفار حامد هلال، عبقري اللغويين، المجلد2، ص863
24. الخصائص، ج1، ص133
25. عبد الغفار محمد هلال، عبقري اللغويين، ج2، ص864
26. عثمان ابن جني، الخصائص، ج2، ص550
27. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة في الكتب العربية، الاسكندرية، مصر، 1998، ص ص 153-154 1
28. عثمان ابن جني، الخصائص، ج2، ص370
29. المصدر نفسه، ص371
30. الصالح صبحي، دراسات في فقه اللغة، ص ص 182، 183.
31. المرجع نفسه، ص 83.